على رصيف المقهى

دراسة اثنوجرافية لمنطقة متخلفة بمدينة طنطا

على رصيف المقهى

دراسة اثنوجرافية لمنطقة متخلفة بمدينة طنطا

محمد سعيد فرح*

ملخص الدراسة:

تهدف الدراسة الى تقديم وصف اثنوجرافي لمنطقة "ستونة" وهى احدى المناطق الكائنة بمدينة طنطا وهى دراسة استكشافية، اعتمد فيها الباحث على الملاحظة بالمشاركة كأداة لجمع البيانات وطرحت الدراسة لعدد من التساؤلات الاستكشافية منها: هل التحسين يبدأ بالتكالب على جمع المال الذي ييسر وسائل الحصول على ما في السوق من منتجات ويوفر الحصول على الخدمات وتوصيل المرافق؟، أم يبدأ التغيير بالتطلع إلى تعليم الأبناء وتوفير الخدمات الطبية بالحي؟، أو تحسين المسكن؟ أم تغيير العمل؟ أم ترك الوطن والبلاد الأخرى؟ أم التحول من عامل أجير الى صاحب ورشة صغيرة ذات الطابع التقليدي المألوف؟، وهل يمكن أن تحقق هذه الورشة الصغيرة تنمية اقتصادية في عصر الإنتاج الضخم؟. وقد توصلت الدراسة لعدد من النتائج أهمها: أن أهالي المنطقة يرفضون مظاهر التخلف مع رغبتهم في التحسين ولكنهم يختلفون في الوسائل لبلوغ مستوى حياة أفضل، وتوصلت الى إن عدم الاتفاق على طريقة التغيير يعنى عدم تكامل الثقافة الخاصة لهؤلاء حول مجموعة من السمات وعدم التماسك الوظيفي للحياة الثقافية الخاصة بهؤلاء الناس، فأهل الكُفر يفتقدون الصيغ الثقافية الواضحة التي

* استاذ علم الاجتماع بكلية الآداب- جامعة طنطا.

تحدد طريقة حياتهم، مما يفند وجود ثقافة خاصة بهم تميزهم عن غيرهم. كما شفت لنا المشاهدة أن العمال الحرفيين والفنيين وأصحاب الورش يتحصلون على مال وفير نسبيا، مما غير في أنماط استهلاك هؤلاء وحولهم إلى الاستهلاك المظهري.

كلمات مفتاحية: اثنوجرافيا، المقهى، الاستهلاك.

المقدمة:

لا تستحق كل كتب علم الاجتماع في الدول المتخلفة ساعة عناء، إن تغاضى علماء الاجتماع عن مشكلات مجتمعاتهم، وأداروا ظهورهم لما يحدث في هذه المجتمعات من أحداث ولم يلتزموا بقضايا شعوبهم، ومن القضايا الهامة في هذه البلدان قضية الفقر والفقراء، وترجع خطورة هذه المشكلة الى كونها سببا ونتيجة لكل المشكلات الاجتماعية الأساسية التي تزعج الناس، ولذا يتعين علينا أن ندرسها دراسة واعية تكفل المساهمة في رسم سياسة اجتماعية تقوم على خطوات علمية.

إلا أن السؤال الذى يفرض نفسه في المجتمعات المتخلفة هو: هل تؤدى جهود التنمية والتغيير الى التغلب على مشكلة الفقر والتخفيف من حدتها وآثارها، أم أن كل من يولد فقيرا يعيش ويموت فقيرا؟، واذا كان الجواب على السؤال الثاني بالإيجاب، فهل للفقراء خصائص مميزة لهم لا تتغير ابدا، وهل لهم طريقة حياة خاصة بهم، تجهض عائد كل جهود التنمية والتغيير من أجل حياة أفضل لهم؟،

بمعنى هل هناك ثقافة للفقراء تحدد طريقة حياتهم وأسلوب تفكيرهم تتوارث من جيل الى جيل وتمنع جهود التغيير؟ وهل هم عاجزون تماما عن أخذ مبادرة التحسين؟، وهل يكرر الأبناء طريقة حياة والديهم، والتبريرات العقلانية والحيل الدفاعية التي ينفردون بها عن غيرهم، والتي تعتبر مميزة لهم؟، وهل طريقة الحياة هذه راسخة مستقرة ولا تتغير ابدا وتنتقل من جيل الى جيل؟، كما يردد بذلك كثير من الانثروبولوجيين وعلماء الاجتماع في الغرب؟.

ونقصد بالفقراء هؤلاء الذين يعيشون في مستوى منخفض، ويعجزون عن اشباع حاجاتهم الأساسية، ونحن لا نعرف كم عدد الفقراء في مجتمعنا، فالبيانات الإحصائية ليست كافية، ومقاييس تحديد الفقر وتعريف الفقراء لم يتفق عليها ولكننا نهتم بهم لكونهم يعيشون بيننا، والتزاما منا بقضايا مجتمعنا، والتي تفرض علينا الاهتمام بالفقراء وعدم تجاهلهم، فهم يتعاملون معنا ونشعر بمعاناتهم، ونواجههم يوميا ابتداًء من صبى الكواء وصبى السباك، ومطاردة بائع اليانصيب لنا، وماسح الأحذية، وفى مواقف السيارات، والخادمات في المنازل، والمتسولين والنائمين في الطرقات ومحطات السكة الحديدية، وانتهاء بمساكن الفقراء التي نمر بها يوميا في طريقنا إلى عملنا، ولذا فنحن ندرسهم لفهم الأسباب الحقيقية وراء تردى مستواهم.

ولقد انقسم العلماء في تفسير الفقر وسلوك الفقراء الى اتجاهات مختلفة، فريق يرجع الفقر الى عجز دخول هؤلاء عن اشباع الحاجات والمطالب التي تتزايد عاما بعد عام، وعدم قدرتهم على ان يعيشوا معيشة لائقة وهذا التعريف الاقتصادي يتمركز حول الظروف الخارجية، كما يتمثل في المعاملات الاقتصادية التي تؤثر على تشكيل سلوك الفقراء والتي تحرمهم من شراء العناصر الاستهلاكية والحصول على الخدمات الاجتماعية والإنتاجية، ويرى هذا الفريق ان ازدياد الطلب على السلع والخدمات هو مقياس القضاء على الفقر.

والفريق الثاني يرى أن سلوك الفقراء محصلة الظروف والضغوط البنائية في المواقف المختلفة، وان البناء الاجتماعي الكبير هو الذي يحدد الظروف التي يعيش فيه الفقراء[1]، حيث يلعب غير الفقراء دورا قياديا في توزيع الثروة والقوة والخدمات لصالحهم.

ويركز الفريق الثالث على الاتجاهات الداخلية وأنماط السلوك التي يؤديها الشخص الفقير، وأنصار هذا الفريق يهتمون بالبحث عن أسباب الفقر وآثاره في طباع الشخص الفقير وخلقه واتجاهاته، ويسمون الفقراء بالتبلد والفساد الخلقي.

[1] Eatelle Fuchs: Education and Culture of Poverty.in Thomas Weaver and Alvin Magid ''ed'', poverty, new interdisciplinary, san Francisco,1969

ومن الخصائص الأخرى التي يسقطها هذا الفريق على الفقراء، الايمان بالعجز عن تغيير البيئة، والايمان بأن خصائص حياتهم شكلتها قوى خارجية لا يمكن السيطرة عليها، والاحساس بالدونية إزاء الذين يسيطرون على المجتمع، واستحالة التخطيط، وتقبل الأشياء كما هي، والعجز عن اتخاذ قرارات مصيرية، والعجز عن تحديد خطط عقلانية، ويرى هذا الفريق أن الفقر يضفي على هؤلاء الفقراء طابعا مميزا تخلده عملية التنشئة الوالدية.

إن القول بوجود ثقافة خاصة للفقراء يكشف عن التناقض المنطقي بين القول بوجود ثقافة عامة للمجتمع كله، وهي نسق في بناء عام يتغير باستمرار، والقول بوجود ثقافة فرعية خاصة خالدة بالفقراء لا تقبل التغيير، وتحدد هذه الثقافة الفرعية مجموعة جاهزة من الحلول لكل المشكلات الإنسانية التي تواجه الفقراء، كما تستخدم كوظائف توافقية هامة لمواجهة الضغوط التنظيمية.

وبالمثل فالقول بوجود ثقافة خاصة بالفقراء قول تعوزه الدقة العلمية، لأن الفقراء جزء من المجتمع، يشاركون الكل في نسق الأفكار والقيم، ويتأثرون بالتغيرات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي تعم المجتمع، والتي تنعكس على سلوكهم وأفكارهم، ولذا تهدم نظرية ثقافة الفقر من أساسها باعتبار أن الفقراء يشاركون في نسق القيم المتغير مع باقي أفراد المجتمع، ولا ينعزلون عنهم.

ان مفهوم الفقر نسبى، لذا لا يصح ولا يجوز من الناحية الموضوعية أن نعمم آراء ونتائج دراسات أجريت في مجتمعات تختلف عنا في نظامها الاقتصادي وتقاليدها ودينها وظروفها التاريخية واوضاعها السياسية.

ولقد استقرانا من معايشة بعض أنماط من الفقراء أن هناك تباينا واضحا بين الكبار والشباب إزاء مشكلات مجتمعهم، وأن هناك ثنائية في أساليب التفكير والحلول التي تقترح لهذه المشكلات، وهناك ازدواجية في الاتجاهات إزاء التعليم وتنظيم الأسرة والعمل والادخار، ونحن لا نستطيع أن نصفهم جميعا بالعجز والقصور وعدم القدرة والاستسلام للواقع، وعدم محاولة التغلب على الظروف التي تحيط بهم.

ولقد بينت لنا المعيشة أن الفقراء أنماط، وليس الفقير هو من يعيش في قاع المجتمع ويعمل عملا يثير الاشمئزاز والاحتقار. فقد ظهر لنا نمط جديد من الفقراء هو نمط الموظف محدود الدخل الذي يعاني من الظروف التي تحيط به لعجزه عن توفير مطالب أسرته.

وهم يعيشون الحاضر في أشخاصهم ويسعون لجمع المال لتغيير طريقة حياتهم، كما يؤمنون بالتغيير في شخصية أولادهم، فهم يخططون للمستقبل من خلال تعليم الأبناء، وتحسين مستواهم التعليمي الذي يؤدى الى تحسين المكانة المهنية للأبناء.

فثمة مظاهر عديدة تدل على عدم الاستسلام للواقع منها: الوعى بالتفاوت الطبقي بالمجتمع، وهم ليسوا متبلدي الحواس، كما يصفهم اوسكار لويس، لأنهم يعون بالأحداث التي تحدث حولهم على المستوى المحلى والمستوى القومي والمستوى العالمي، كما يعون باستغلال أصحاب العمل والتجار لهم، والتطلع الى تجنيب الأبناء مما عاناه الآباء، ويتأكد ذلك في الاهتمام بتعليمهم وإن تباينت النظرة من تعليم الابن ولابنة، والحراك المهني وسعى الأبناء الى العمل في مهن تخالف مهن الآباء والحراك التعليمي، فلم يعد الأبناء يرثون أمية الوالدين، والمنطقة مملوءة بحالات لآباء أميين حصل أولادهم على مؤهلات عالية، والذين تركوا المنطقة الى مناطق أخرى، والحراك الاقتصادي نتيجة زيادة الدخل وتحول بعض الأجراء الى أصحاب عمل، والسعي الى تحسين الخدمات والمرافق بالمساهمة المالية، والسعي إلى الاشتراك في التأمينات الاجتماعية، وتقبل الأفكار الجديدة مثل تنظيم الأسرة وتوظيف الابنة وتحويل وظيفة المسجد من مكان للعبادة الى مراكز لتقديم الخدمات، والاقبال على شراء السلع والكماليات خاصة المذياع والتلفاز والأدوات المنزلية ولو بالأجل، والشكوى من الأوضاع القائمة وهى صورة من صور رفض الواقع والتبرم منه. وكل هذه المظاهر تفند أنهم متبلدون وأنهم مستسلمون لا يتذمرون، وتعكس الثورة المكبوتة عند بعضهم، والايمان بالطب وزيادة استهلاك الدواء، والسعي الى الهجرة لتغيير الأوضاع.

ومن مظاهر التحسين والتغيير أن المال أصبح قيمة عليا، الكل يسعى الى المال، ولكن السوق يمتص كل ما يجمعونه ويدخرونه لتغيير أوضاعهم، ومن حولهم الى طبقة تؤمن بالاستهلاك لتعويض سنوات الحرمان، وهم يبررون هذا السلوك بأنهم يريدون "أن يعيشوا كما يعيش الناس".

خصائص الفقراء:

ولكن هناك خصائص لا تميزهم وحدهم مثل الاتكالية، فتلك سمة تخص المصريين، وترتبط بجهلهم بعقيدتهم الدينية، هناك تصرفات لا تعود الى خلقهم وطباعهم مثل الفشل الدراسي أو العمل أو التسرب من المدرسة، فالفشل الدراسي لا يرجع الى انخفاض ذكائهم ولا يرجع الى قيم الفقراء، بل الى قصور نظام التعليم نفسه، ونوعية المدرس الذى يعلم أبناء ساكني المناطق المتخلفة، ورغم محاولات اجهاض ثمار مجانية التعليم، فان أبناء المناطق المتخلفة يتفوقون على الظروف المحيطة بهم، وعلى ظروف المسكن الذى يخلو من أماكن مخصصة لاستذكار الدروس، فهم قد يستذكرون دروسهم في المسجد أو يخرجون الى أطراف الكفر لمراجعة دروسهم في الخلاء، أو يسهرون الليل بجوار مصباح خافت، وكم نجح من هؤلاء الذين ثابروا حتى وصلوا إلى أعلى المكانات، فالطبقة الفقيرة في مجتمعنا ليست طبقة مغلقة على أفرادها.

وقد كشفت الدراسة لنا أن كثرة منهم تؤمن بالمشاركة في حل مشكلات (الكَفْر)، فهم لا يفتقدون الفاعلية المؤثرة ولا الرغبة في

المساهمة مع الآخرين في تذليل العقبات الخاصة والعامة، وأبسط صور المشاركة هي المشاركة في جمع المال، رغم حاجتهم إليه "قليل القليل يجمع" ولقد ساهموا في جمع أموال عمرت بعض المساجد دون قسر أو اكراه، وهم يؤمنون بأن مشكلاتهم لن تحلها الجهود العشوائية الفردية، بل يتطلب الأمر تنسيق التعاون بين الجهود الشعبية والجهود الحكومية من أجل تحسين المرافق والخدمات بالكفر، فالواقع المتردي اكبر من جهود أفراد، إلا أن هناك فئة لا تؤمن بالقدرة على التغيير إلا اذا حدث هذا التغيير من قوة عليا ... ومن النماذج المشرفة للمشاركة وعدم السلبية، جهود البعض في العمل السياسي وحل بعض مشكلات الحى، وهذه الجهود التي بذلت من خلال المشاركة في العمل السياسي لخدمة تطرح تساؤلات عن الدور الذى يمكن أن يقوم به المتعلمون من أبناء هذه المناطق، ونوعية القيادات التي يمكن أن تفرخها هذه المناطق، وهل أفضل القيادات في الأحياء المتخلفة هي التي تنشأ بها أم الغريبة عن الحى ومشكلاته والتي تصل الى مكانة القيادة بقوة المال والإعلام؟ ، اذ أن هناك شعورا قويا بأن من يختارونهم كثيرا ما ينسلخون عنهم، ولماذا لا يلتزم أبناء الكفر الذين يتحركون مهنيا واجتماعيا وتعليميا (بالكَفْر)، الذين نشأوا فيه؟، ولماذا يستحون من الاعتراف بالانتماء إلى (الكَفْر)؟.

كذلك يشكو سكان الكفر من نقص حاجاتهم من السلع وسوء الخدمات وتدهور المرافق، فهل يرجع ذلك الى نقص امكانياتهم أم الى

الثقافة الخاصة بهم، ان السمات الثقافية السائدة بينهم لا تفسر العجز المالي لهؤلاء، ولا تبرر سوء الخدمات ونقص المرافق، فهل يرجع ذلك الى سوء توزيع الثروة وعدم عدالة توزيع الخدمات، اذ أن الأحياء الراقية التي يسكنها من يملكون قوة المال وقوة السلطة هي التي تحصل على أفضل الخدمات بينما يحرم الآخرون منها؟

تساؤلات الدراسة:

وقد بينت لنا الدراسة رفض مظاهر التخلف والرغبة في التحسين ولكنهم يختلفون في أفضل الوسائل لبلوغ مستوى حياة أفضل، هل التحسين يبدا بالتكالب على جمع المال الذي ييسر وسائل الحصول على ما في السوق من منتجات ويوفر الحصول على الخدمات وتوصيل لمرافق؟، أم يبدا التغيير بالتطلع الى تعليم الأبناء وتوفير الخدمات الطبية بالحي؟، أو تحسين المسكن؟ أم تغيير العمل؟ أم ترك الوطن والبلاد الأخرى؟ أم التحول من عامل أجير الى صاحب ورشة صغيرة ذات الطابع التقليدي المألوف؟، وهل يمكن ان تحقق هذه الورشة الصغيرة تنمية اقتصادية في عصر الإنتاج الضخم؟!. إن عدم الاتفاق على طريقة التغيير يعنى عدم تكامل الثقافة الخاصة لهؤلاء حول مجموعة من السمات وعدم التماسك الوظيفي للحياة الثقافية الخاصة بهؤلاء الناس، فأهل الكفر يفتقدون الصيغ الثقافية الواضحة التي تحدد طريقة حياتهم، مما يفند وجود ثقافة خاصة بهم تميزهم عن غيرهم.

وثمة تساؤلات أخرى أثارتها المعايشة اليومية لهؤلاء، أهمها عن أهمية الاتصال في تغيير حياة الفقراء وآرائهم وسلوكهم سواء الاتصال المباشر أو غير المباشر، وعن طبيعة الدور الذي يمكن أن تلعبه الإذاعة والتلفاز من خلال الروايات التمثيلية والبرامج الدينية في بث القيم الجديدة والتي تدفع بعملية التنمية.

وقد كشفت لنا المشاهدة أن العمال الحرفيين والفنيين وأصحاب الورش يتحصلون على مال وفير نسبيا، مما غير في أنماط استهلاك هؤلاء وحولهم الى الاستهلاك المظهري، فهل يرجع ذلك الى ما يؤمنون به من قيم تواكلية أم الى الرغبة في تعويض سنوات الحرمان؟ والحكم السريع على من يعزفون عن العمل يصفهم بأنهم كسالى، فهل هم كسالى متواكلون، أم ان العمل العضلي ينهكهم ويرهقهم ويجهدهم ويساعد سوء التغذية على الشعور بالتعب المضنى؟.

وهناك معوقات للتغيير أهمها ادمان البعض المخدرات وهم يدمنون المكيفات والتدخين هروبا من مشكلات تعصرهم، وتسرب التلاميذ من المدرسة وهجرة العمالة المدربة التي تؤثر على إنتاجية المصانع والورش، كما تؤثر على أنماط الاستهلاك في الكفر، وتؤكد التباين بين انماط من لا يملكون المال الوفير والعائدين من المهجر، وتزايد التطلعات الطبقية بالإقبال على المزايدة في أسعار الأراضي الفضاء وانحلال بعض العلاقات الزواجية.

بيد أن هذه السلبيات لا تميزهم وحدهم، فهي تعم المجتمع كله، إن أنماط التفكير واشكال السلوك التي تسود الكفر ليست كلها فريدة وليست خاصة بهم وحدهم، كما أن جهود التغيير ابتداء من السعي إلى جمع المال أو التطلع الى تعليم الأبناء أو الايمان بتنظيم الاسرة ومظاهر الحراك في كافة صوره ومظاهر التبرم والرفض والسخرية من الواقع، كلها مظاهر تكشف لنا عدم الاستسلام للواقع وأنهم لا يقدسون هذا الواقع، بل يسعون الى تغييره، وهذه الرغبة في التغيير تهدم نظرية الفقر التي عممها أوسكار لويس دون سند من التجريب أو الاستقراء العلمي، وتكشف لنا إمكانية التنمية الاجتماعية لهؤلاء الناس وتغيير واقعهم والتخفيف من أسباب شقائهم أو الحيلولة بينهم وبين الأسباب، التي تؤدي الي بؤسهم وسعادتهم، وأن هذا كله يمكن أن يتحقق لو حدث تغير شامل في البناء الاجتماعي.

طبيعة الدراسة:

وهذه الدراسات التي قمنا بها لبعض النوايات الاجتماعية في "كَفْر ستوتة" بمدينة طنطا ومنها المقهى لمعرفة مدي امكانيات التنمية بين ذوي المعيشة المنخفض– تصنف ضمن الدراسات الاستكشافية، و تهدف الي معرفة خصائص ذوي المعيشة المنخفض، و جمع المعلومات لتحديث اذا كان ثمة جدوي من جهود التنمية أم لا؟، و تقصي ما اذا كانت هناك جهود للتحسين أم لا ؟، والبحث عن

تساؤلات لمدي تقبلهم للتعليم و العمل و الهجرة و التخطيط للمستقبل و البحث عن المظاهر السلبية و الايجابية عند ذوي المعيشة المنخفض، وكيفية الاتصال بينهم، وهل ينفقون دخولهم علي أبواب الانفاق الضرورية أم لا ؟ ، ونوعية التيارات السائدة في الكفر و علاقات الناس بهم .

وهذه الدراسات الاستكشافية للكفر خطوة أولية لبحوث أخري، من اجل التعرف على مظاهر مستوي المعيشة المنخفض في الكفر، وهي أمر لا مفر منه في البلدان النامية من أجل تخزين معلومات موثوق فيها تساهم في رسم سياسة اجتماعية وصياغة نظريات سوسيولوجية تتلاءم مع واقعنا، والتعرف على مجتمعنا علي أسس علمية بدلا من إجراء بحوث تقوم على فروض مقتبسة من نظريات اجتماعية غربية.

منهجية الدراسة:

وقد اعتمدنا في هذه الدراسات الاستكشافية على الملاحظة كأداة لجمع المعلومات عن أهداف وأغراض وتطلعات أفراد النوايات المختلفة في كفر" ستوته" المتاخم لمحطة السكك الحديدية، وكنا نسمع آراء الناس وتعليقاتهم، لكي نفهم سلوكهم وكنا نلاحظ سلوكهم وتصرفاتهم في مواقف طبيعية تلقائية غير موجهة، وكنا نتفاعل معهم ونتبادل الحديث ونشترك معهم في ألعاب الدومينو بالمقهى، أو نحاول أن نعمل عملا بسيطا في الورشة أو المصنع المجاورين للمقهى. وقد

جالست العمال خارج المصنع أو الورشة بالمقاهي المجاورة لأماكن العمل حيث يتجمعون، وكنت اسمع الحوار بين رواد تجمع محطة بنزين "وموبيل أويل" وأشاركهم الحوار، وكنت أتعامل معهم كواحد منهم بعدما زالت الكلفة بينهم وبيني، وكنت خلال مدة البحث أتجنب التعاطف معهم، وألا يصدر عني أي سلوك ينم على التعالي طوال فترة زياراتي المتكررة لهم، التي استغرقت عاما كاملا بدأ من أول مايو ١٩٨٠ وانتهي في آخر ابريل ١٩٨١، كنت أزور هذه النوايات ثلاث مرات اسبوعيا لمدة تقرب من ٦ ساعات يوميا أتردد خلالها بين المقهى والورش.

وقد عرفت الفقر لأول مرة عندما قمت بإجراء دراسة ميدانية لأهالي عشش "محفوظ" في مدينة المنيا، ولكن صلتي ومعرفتي بهؤلاء الفقراء كانت عابرة ... ثم عرفت الفقر وعاشرت الفقراء لثاني مرة عندما درست الفقر في حي "ستوتة" بمدينة طنطا، وكان الاستاد الدكتور/ عبد المنعم شوقي أشبه بكسارة البندق في المرتين، إذ كان الأستاذ راغبا كل الرغبة في تغيير أفكاري النظرية المتوارثة عن علم الاجتماع الغربي وتحطيم أصنام صاغها مفكرو علم الاجتماع الرأسمالي والذين توحدت بقضاياهم وتعصبت لها تعصبا أعمي.

كانت طريقة الدراسة في المرتين مختلفة كل الاختلاف، ففي المرة الاولي اعتمدت على السؤال، أي استمارة الاستبيان، أما في المرة الأخرى فاستخدمت المعايشة والملاحظة والسؤال والمقابلة، واستمرت

هذه الدراسة عاما كاملا، وكان الهدف دراسة طريقة حياة الفقراء في منطقة من أشد المناطق فقرا في مدينة "طنطا" ومدي امكانيات تغيير هؤلاء الفقراء، وتنمية المنطقة، واستقر بي المقام بمقهى صغير، رواده يجلسون على الرصيف، أشاهد وألاحظ وأحاول وأسأل... من المقهى أنتقل الي ورشة لتصنيع الآلات الزراعية، أو أعبر الطريق الي مصنع بدائي لصناعة الزجاج، وفي هذه النوايا الثلاث كانت مشاهد وصور الفقر تتلاحق، والصدمات الواحدة تلو الأخرى تتابع، في أيام الشباب كنت متحمسا لآراء "اوسكار لويس" و ما أبدعه من كتابات عن ثقافة الفقر، و لكن بعد معايشة الفقراء في مصر عامة، و قلب الدلتا خاصة بجوار محطة السكة الحديد، أدركت عقم ثقافة الفقر... و أن الفقراء هنا يختلفون عن الفقراء هناك، و أن للفقر خصوصية، وفي نهاية العام تحول رواد المقهى و بعض عمال مصنع الزجاج و الورشة الي أصدقاء بعد الريبة و الشك.

لكن كيف اقتحمت حياة هؤلاء الأصدقاء، وخاصة صاحب المقهى والنادل نحيف الجسم الذي كان عمره لا يزيد عن ١٢ عاما؟ في البداية توجسوا مني خيفة وعندما قدمت لهم البطاقة العائلية قالوا لي "لعبة قديمة" يلعبها ضابط المباحث.

وفي يوم من الأيام قرب الثانية ظهرا- ولا أنسي ذلك اليوم- دخل ثلاثة من رواد المقهى بملابسهم المميزة الي مبني الكلية يسألون عني،

وقادهم الاستاذ/ أنور الي مكتبي وقدمهم الي وهو يبتسم ابتسامة خبيثة...وقال الجماعة يسألون عنك... بعد تلك الزيارة سهل عملي معهم وكنت أتردد. علي المقهى أحيانا في الساعة الثامنة صباحا، و أحيانا أغادر المكان في السابعة مساء، و كنت أتردد على المنطقة ثلاثة أيام أسبوعيا، أحيانا أربعة أيام علي مدار العام، أشرب الشاي أو الحلبة و ألعب الدومينو: أشرب و أشاهد و أسال و أسمع و أري، و كانت العين تسمع و الأذن تري ، كما يقول د/ ثروت عكاشة، أسأل ثم أنبش و أحلب، ثم عرفت أن الفقر يولد الحزن السلبي، و يرتبط بالأمية و العجز، و سوء التوزيع و الحرمان صدق الامام علي بن ابي طالب عندما قال" لو كان الفقر رجلا لقتلته"، و ان عهد و زمان" تموت الحرة و لا تأكل من ثديها" قد ولي، وشاهدت العروس التي تركها عريسها و سافر سعيا وراء الرزق، و تركها فوق سطح صفيح ملتهب، و تذكرت أنيس في رواية "ثرثرة فوق النيل" لنجيب محفوظ اه لو عرف.

جمعت البيانات والمعلومات وقمت بتحليلها كيفيا، فلفقراء في بلدنا لهم خصائهم وخصوصيتهم. بعد رحلة جمع البيانات والتحليل والتصنيف، اعددت ثلاث دراسات تصف الفقر والفقراء في كفر"ستوته" ووضعتها في أدراج مكتبي، والدراسة الاولي عن المقهى، والثانية عن مصنع الزجاج، والثالثة في الورشة.

وصف الكفر والبيئة المحيطة به:

يقع الكفر قبلي محطة السكك الحديدية، ويشاع أنه ينسب الي اسم جاريـة من جواري اسماعيل باشا، كانت من مريدات صاحب الضريح الكبير بالمدينة، فبنيت أول بيت بالكفر، وتزوجت معلمها شيخ المسجد الكبير.

يصل الكفر بالمدينة نفق و لكن طرق الحياة في شطري المدينة متباينة تباينا كبيرا، و ليس معني هذا أن الكفر منطقة منعزلة بعيدة عن أعين سكان المدينة، فسكانه لا ينفصلون عن المدينة، كما يعبر سكان المدينة الكفر اذا رحلوا الي محافظات و مراكز أخري، كما يعمل سكان الكفر بالمدينة، و عندما استحكمت أزمة الاسكان بالمدينة و ارتفعت أجور المساكن بها، لجأ محدود الدخل الي الكفر للإقامة به، و بدأ الكفر يشهد تغيرا كبيرا و اتساعا عمرانيا، بدأت المنازل تجور علي الأراضي الزراعية التي تحيط بالكفر، و لم يعد الكفر قاصرا علي أصحاب الحرف اليدوية و العمال، الفنيين وعمال الخدمات وعمال وموظفي السكك الحديدية، بل سعى للإقامة به كل من لا يقدر على دفع ايجار السكن في قلب المدينة وأحيائها.

ومن معالم الكفر شدة قذارته، وضيق طرقاته، فبعض الحارات في الكفر القديم ضيقة ومتعرجة، أما حارات الكفر فضيقة ولكنها مستقيمة، الحارات غير مرصوفة متربة، وتقذف النساء بفضلات الطعام

والنفايات البشرية والمياه المتبقية من تنظيف الأواني وغسل الملابس في الطريق، ولذا كثرت المياه الطعنة أمام البيوت، وليس من المستغرب أن تشاهد طفلا يتبرز بجوار بيته تحرسه أمه أوأخته، والذباب الكثير الذى يحوم حول الفضلات والنفايات، وتحرق بعض النسوة أصحاب الحوانيت الفضلات أمام المسكن، وتكثر بالحي الفئران التي تؤرق الناس، ويشاهد المارة جثتها الطعنة ملقاه بجوار المساكن، وتوجد في وسط الحارات القديمة بالكفر مراحيض عامة يستعملها هؤلاء الناس الذين خلت بيوتهم من المراحيض الخاصة، ومن الأمور المألوفة أن تجلس بعض النسوة أمام البيوت يتبادلن الحديث، وتكاد تخلو الشوارع الخلفية من الرجال- إلا العاجزين عن العمل- أثناء ساعات النهار، فالرجال يسعون الى الرزق في الورش والمصانع والإدارات الحكومية، أو يجلسون على المقاهي في انتظار عمل.

أغلب المساكن بالكفر صغيرة الحجم، وبعضها يحمل الطابع الريفي واغلب البيوت القديمة مبنية من طابق واحد، أما الجديد منها فمبنى من طابقين أو ثلاثة طوابق، وتبلغ نسبة المساكن الجديدة التي بنيت من الاسمنت والحديد المسلح ٦٧% من المساكن المقامة بالكفر، ولقد بنيت ١٤.٥% من البيوت من الطوب اللبن، وتتدنى نسبة المساكن المقامة بالكفر من الطوب الأحمر الى ٩% وقد بنيت٧%من البيوت من الطوب الأحمر والطوب اللبن معا.

أغلب أبواب المساكن مفتوحة نهارا، بعض المساكن تهبط لها درجة أو درجتين، وتقع حجراتها تحت سطح الأرض حتى أن عابر الطريق يمكنه أن يشاهد ما يحدث داخل هذه الحجرات إذا كانت النافذة مفتوحة، وضيق المسكن ورطوبته سبب امراضا كثيرة لبعض سكان الكفر وأكثرها انتشارا الروماتزم والربو، وتصنع بعض الاسر الخبز في بيوتها على الطريقة الريفية، ومن اجل هذا تتزاحم بعض النسوة أمام الجمعيات الاستهلاكية لشراء الدقيق، والبعض يربى الطيور للاستفادة منها، أو تربى الحيوان نظير مبلغ من المال تتقاضاه من صاحبه.

يسكن حوالي ثلاثة أرباع الأسر في مسكن مستقل، بينما يعيش الآخرون في مساكن مشتركة، تشغل حوالي ربع الأسر بالكفر مساكن مكونة من حجرة أو حجرتين بينما يعيش أكثر من ثلث الأسر في مسكن مكون من ثلاث حجرات، كما يسكن ربع الأسر في مسكن مكون من ٤ حجرات، بعض شركاء المسكن من الأقارب والبعض من الغرباء.

المقهى:

والمقهى مكان عام تقدم فيه القهوة ونحوها من الأشربة، ويقع المقهى في قلب الميدان، وفى مدخل الكفر وهو أشهر مقاه الكفر وأقدمها، وهو مكان لقضاء أوقات الفراغ عند البعض أو انتظار صاحب عمل أو لأداء المعاملات وعقد الاتفاقات.

ويكشف الجالس بالمقهى منذ الوهلة الأولى التناقض الواضح بالكفر ابتداء من السلع والمنتجات المعروضة للبيع بالحوانيت، حيث السلع والمعلبات المستوردة والدراجات البخارية وبعض محلات البقالة التي يوجد بها ثلاجات كهربائية الى جانب الباعة الجائلين الذين يبيعون المواد الغذائية العفنة والفاسدة، ومرورا بالعابرين من طبقة الموظفين والعمال، فالإسكافي وماسح الأحذية وبائعة السمك المشوي، فالمتسول، وانتهاء بالسيارات وعربة الكارو التي تسير بجوارها.

وتقع خلف المقهى الكثير من البيوت المسماة بالبيوت الحكر المشيدة من الصفيح أو الطوب اللبن والخشب ذات الطابق الواحد والمراحيض العامة. وعلى بعد خطوة من المقهى منازل الإسكان الشعبي المبنية حديثا، والخالية من السكان، ويدرك الجالس في المقهى أن الميدان وما حوله يعد منطقة عمل، فهناك مجموعة من الورش والمحلات التجارية ووكالات بيع الخضروات والفواكه.

ويجلس رواد المقهى عادة على قارعة الطريق فوق دكك خشبية، أو كراسي قاعدتها من الصفيح، فالمقهى بالداخل مكان ضيق لا يتسع إلا لإعداد المشروبات الساخنة فقط- ما عدا القهوة لارتفاع أسعار البن- أو تجهيز الجوزة لشرب الدخان وجلوس شخصين لا ثالث لهما.

والجالسون عادة قد يكونون من الشباب، وقد يكونون من الشيوخ، والشيوخ بعضهم حفاة ويلبسون الملابس القديمة الممزقة، والبعض يلبس الجلباب أو ملابس الجنود أو الزى الرسمي لموظفي السكك الحديدية، لا فرق لديهم بين ملابس الصيف والشتاء والبعض منهم في الشتاء يلبسون الملابس طبقات بعضها فوق بعض للوقاية من البرد، والبعض منهم يشترى الملابس القديمة ليلبسها، ولا يتردد عن بيعها لو حقق له بيعها مكسبا، أما الشبان فيلبسون البنطلونات والقمصان ويتناول البعض طعامه بالمقهى ولا يتعدى أقراص الطعمية والفجل أو الجبن القديم والباذنجان، وهم يأكلون الخبز بكثرة، ويجلس الشيوخ طوال اليوم بالمقهى منذ فتحه حتى غلقه، أما الشبان فيجتمعون في المقهى قبل الذهاب الى العمل صباحا ثم يتجمعون في المساء لتصفية حساباتهم أو عقد اتفاقات عمل جديد.

رواد المقهى غير متجانسين في أعمالهم، البعض يعمل في قطاع البناء والتشييد، وهؤلاء هم الأكثرية، وهناك من يعمل بائعا متجولا أو

حوذيا أو حلاقا يحمل حقيبة يتجول بها في السوق أو ليخدم رواد المقهى أو الحداد أو المنجد، البعض متقاعد أو عاطل بسبب الشيخوخة أو العمل غير الموسمي، فبعض العمال عملهم موسمي مؤقت، يجمعون خلاله المال وينفقونه كله بل اكثر منه في أيام البطالة، وبعض رواد المقهى نشأوا بالكفر والبعض مهاجر اليه، تاركا قريته سعيا وراء الرزق، والبعض يجلس انتظارا لفرصة عمل أو تكاسلا، وأكثرهم أميون، والقلة تقرأ الصحف وتقرأ وتكتب الخطابات.

ولا يجمع رواد المقهى طريقة حياة متجانسة، فصاحب المقهى رتب حياته على تردد الرواد على المقهى، ويسعى من وراء جلوسهم الى الكسب والربح، أما رواد المقهى فتتباين أهدافهم يسعى البعض الى المال ويرى أن القرش يغير الحياة "وصاحب القرش صياد" ولذا يعملون رغم الشعور بالتعب، وقد يعمل البعض مواصلا الليل بالنهار، ويسرق ساعات ينام خلالها بغية الحصول على قدر من المال يواجه به التزاماته، وتؤمن قلة لديها فائض الدخل بالادخار لتجميع رأس مال يتركه لأولاده- مهما قل هذا المال- ضمانا للمستقبل، ليوفر سبل العيش لهم من بعده، وقد ادخر بعضهم مالا شيد به مأوى لأولاده ليوفر لهم ايجار المسكن، وقد يدخر البعض في صندوق التوفير أو يجمع الفائض في "حصالة" أو يشترك في جمعية ادخارية- ولكن هؤلاء قلة- فالأكثرية لا يدخرون ويعيشون يومهم ينفقون كل ما يتحصلون عليه "فالحياة أكل وشرب" ومنهم من يتحصل على رزقه يوما بيوم، وقد

لا يكفيه ما يكتسبه لكثرة عدد أفراد أسرته، ولعدم انتظام العمل، ومنهم من يستدين مادام سيسدد الدين يوما.

يسعى البعض الى العمل سعيا في المراكز والقرى المجاورة للمدينة، وقد يجد العامل فرصة عمل أحسن وأكثر أجرا في مدينة أخرى فيذهب اليها ليقضيه ثم يعود، ولكن هناك الكسول المتواكل الذى لا يسعى الى العمل بقدر ما يتمنى أن يسعى العمل اليه، واذا كان هناك من يشقى لتوفير قوت الأولاد فهناك من يسترخى في المقهى وينصرف عن العمل استغلالا لقوى أولاده وزوجته التي قد تأتى الى المقهى وتصرخ من عدم الانتظام في العمل وحاجة الأسرة الى المال، ولكنه لا يبالى فقد اعطى لنفسه إجازة معللا بانه "مريح" "هو حد واخد منها حاجة"؟!، فهو لا يذهب إلى العمل إلا وفق مزاجه الشخصي، فهو قد يعمل يوما ويستريح أياما اكثر.

الفقراء وآليات الحراك الاجتماعي:

يرى البعض أن التعليم هو ضمان مستقبل الأولاد، بل هو أهم وسائل الترقي وتغيير الأوضاع الاجتماعية، ومن أمثلة هؤلاء الحوذي الذى انفق على تعليم أولاده، حتى حصلوا على مؤهلات متوسطة للحصول على وظيفة تحقق لهم مراكز، وتضمن لهم عملا ثابتا ودخلا منتظما، والبائع المتجول الذى يحدد هدفه في الحياة في تعليم أولاده، ويخشى أن يصبح أولاده أميين مثله فيعانون ما عاناه بسبب الأمية ،

وأنصار التعليم يجدون القدوة والمثل في أبناء الكفر الفقراء الذين تعلموا وارتقوا بسبب طموح أسرهم، والاستمرار في الانفاق على تعليم الأبناء، وخير دليل على ادراك هؤلاء لأهمية التعليم تعليق صدر من شاب امي مفاده " العيل لما يكبر يتف على أهله لانهم وصلوه لكده، وهم سبب ما يعانيه بسبب حرمانه من التعليم" .

وإذا كان هناك من يتطلع الى تعليم أولاده فهناك من الشبان من يأمل في الالتحاق بفصول محو الأمية لتعويض سنوات الحرمان، ولكن يحول دون تحقيق أمنيته والانتظام في فصول محو الأمية ما يعانيه من تعب واجهاد في سبيل الحصول على لقمة العيش.

وهذا الاهتمام بالتعليم–وهو اتجاه سائد عند الأكثرية يقابله لامبالاة وفتور من قلة منهم، فهناك من يحرمون أولادهم من التعليم ويدفعون بهم الى سوق العمل اليدوي في سن مبكرة، أو لا يهتمون بتعثر أولادهم في الدراسة، وهذه الفئة ترى أن الفقير لا ينبغي أن يرسل أولاده الى المدرسة فالابن عليه ان يساعد أهله.

والخلاف حول أهمية التعليم أو قيمته لا يقتصر على الرجال من رواد المقهى، بل يوجد داخل الأسرة الواحدة، فموقف الأب الإيجابي من تعليم الأبناء قد يقابله فتور وسلبية من جانب الأم التي قد لا تفهم أبعاد مشكلة التعليم بحكم نشأتها القروية، بل يزداد التباين وضوحاً في موقف بعض الأسر من أهمية التعليم بالنسبة للولد والبنت، فهم لا

يعدلون بين أولادهم في توفير فرصة التعليم، فقد يحرمون الابنة من الاستمرار في الدراسة، ولكنهم ييسرون الأمر للابن.

ومن مظاهر عدم التجانس في طريقة الحياة موقفهم نحو تنظيم النسل، فهناك من يري أن تنظيم النسل فكرة طيبة تحل مشكلات الناس، ويندم على معرفته بهذه الفكرة مؤخراً، ولكن هناك من يرفض تنظيم النسل باعتبار ان تنظيم عملية الانجاب يعد معارضة للإرادة الإلهية، ويحكم بالكفر على من يسمح لزوجته باستعمال وسيلة لمنع الحمل، ورغم هذا الاتجاه المعارض، فتنظيم النسل فكرة تتقبلها الزوجات صغيرات السن، ويؤيد هذا كثرة المترددات على مراكز تنظيم الأسرة، ونفاد المخصص لكل صيدلية من حصة حبوب منع الحمل.

كذلك يختلف أفراد المقهى في تصورهم لطبيعة الواقع الذي يعيشونه فهناك اتجاه يمجد المحاضر ومن الشيوخ تصدر اراء تري " القرش حلو " في هذه الأيام وكثير وبكرامة... لم تكن متوفرة من قبل، والمكسب هذه الأيام أكثر والأجر أكبر، ولكن هناك رأياً معارضاً يصدر من الشبان، وبعض الشيوخ يمجدون الماضي أو يرفضون الحاضر ومعير رفض الحاضر هو ارتفاع الأسعار ليس إلا.

والشبان في هذا المقهى تتباين نحو اتجاهاتهم نحو أسرهم، فهناك شبان يشاركون أسرهم مسؤولية الإنفاق على الإخوة، بل تركوا الدراسة لإعالة أسرهم بعد وفاة الأب، ولكن هناك أرباب أسر ليهم إعالة اسرهم

ولكنهم ينفقون ما يجمعونه من شرب الخمر المغشوش أو لعب القمار أو تعاطي المخدرات، وهناك من يعتقد ان طوق النجاة مما يعانيه هو الهجرة لتحسين المستوي الاجتماعي للأسرة.

وبعض رواد المقهى قانعون مستسلمون قابعون في أماكنهم لا يدركون ما يحيط بهم إدراكا كاملاً، فهم راضون كل الرضا، بعيشهم البسيطة " رضا عايشين ان زادت بركة وان نقصت بركة" فالرزق من عند الله ولن يموت أحد من الجوع "، وهو " يقبل يديه صباحا ومساء حامدا انه يعيش بين أحضان اسرته وينام ليلته معهم ".

ولكن الرضا ليس سمة الكل، فهناك المتمرد والناقد والرافض لما حوله، ولذا يمكن ان نقول ان إدراك الناس لحالهم يتراوح الي بين أقصى حالات التمرد والنقد والرفض – ابتداء من الشكوى وتعثر الأبناء في المدرسة الي نقص الخدمات أو سوء المرافق – وأقصي حالات الرضا بالواقع والاستكانة لما يحيط بهم.

والرافضون للواقع مختلفون فيما بينهم في تحديد من يتولى التحسين، فهناك اتجاه يحمّل الدولة، مسئولية تشغيل الناس وتنظيف الطرقات ورعاية الافراد معارضا في ذلك أنصار الجهود الشخصية، ولكن هناك اتجاها يري ان الحكومة لن تفعل شيئا، وان الأفراد عاجزون فهم لا يعرفون شيئا ولا يجيدون شيئا ولا يستطيعون شيئا، فحل المشكلات لن يأتي إلا من قوة عليا.

ويترتب على هذه الاثار المتباينة والأفعال المتناقضة وجود جماعات تتميز بالسلوك الايجابي وجماعات يتسم سلوكها بالسلبية التامة. وهناك مجموعة تعيش لحظاتها وتبحث عن ملذاتها المشروعة وغير المشروعة، وهناك مجموعة تنظر الي الامام وتتطلع لمستقبل أفضل في شخص أولادها، وتعترف بالقدرة على تغيير أحوال الأبناء، ولكن هناك مجموعة تفقد هذه القدرة وترمي بثقل التحسين على الحكومة أو تنتظر ان يغير الله احوالهم.

وهم في تباين تصوراتهم عن كيفية تحسين مستوي المعيشة ، تتباين مدي تصوراتهم لهذا المستوي فهو اما تصور علي المدي القريب أو المدي البعيد ، فبجانب من يحصر أهدافه في الحاضر وحده ، " ان عشت النهاردة فلن أعيش بكرة " وينفق كل ما كسبه علي أولاده الكثيرين ، ولكن في أيام الكساد تتعري الحقيقة حتي انه لا يجد ثمن رغيف الخبز ، فيحاول ان يظهر علي حقيقته ، فيستدين لمواجهة مطالبه وإشباع حاجاته ولا يكتفي بأجره بل يسحب من اجره لإرضاء مطالبه الشخصية ، فلا يتبقى من اجره اخر الأسبوع ما يكفي فيستمر في حلقة الديون ، وهناك من يلبس جلبابا ويحمل جهاز كاسيت في يديه ، ويضع في جيبه اشرطة الكاسيت وهناك من يرتدي ملابس صوفيه غالية الثمن ويسكن في حجرة في مسكن مشترك ، وهناك من يلبس ساعة قيّمة ويلبس قفازا جلدا وتطفح علي وجهه اعراض سوء التغذية في شكل امراض جلدية ، وهناك من يلبس رداء مصنوعا من

الجلد ويحمل ولاعة قيّمة ويحمل علبة سجائر مستوردة ، هؤلاء يبررون تصرفاتهم بقولهم " لو كسبت فنجر " وبعد ما " انفق ما معي اصبح في عرض قرش " و أعيش لظروفها"، وهذه التصرفات تعكس قيما يؤمن بها هؤلاء تؤكد النمط الاستهلاكي في المظهر الذي يسود المجتمع حاليا بعد سياسة الانفتاح.

ولكن يخالف هؤلاء من يفكر في الغد القريب ، ويبدو ذلك جليا في المساهمة في تكوين جمعيات إدخارية من أجل كسوة الأبناء أو تدبير نفقات جهاز زواج الابنة أو تكاليف زواجها ، وتتفاوت القدرة على الاشتراك في الجمعيات الادخارية حسب القدرة المالية للأسرة، فبعض الزوجات يقتطعن قروشا كل يوم من نفقات البيت ، في حين قد يدفع العامل جنيها كل يوم، فكل من هؤلاء المدخرين يدفع حسب قدرته ، ولكنهم يدخرون من اجل الاستهلاك في المدي القريب ، ولكن هناك من يحدد أهدافا بعيده تحققا مثابرته علي تعليم أولاده أو اشتراكه في التأمينات الاجتماعية مهما كان امره .

وهذه الأهداف التي يسعي الأفراد إلي تحقيقها تعبر عن آمال شخصية وتطلعات فردية ، وتختلف من مجموعة لمجموعة اخري وتتباين من موقف لموقف آخر وتبدو أحيانا غير واضحة وغير منطقية ، فهو يساهم في جمعية ادخارية ولكنه ينفق ما إدخره في شراء الملابس أو تلفاز ، أو يعمل بكد ولكن لإرضاء مزاجه ، أو يعلم ابنه ويحرم ابنته من الاستمرار في الدراسة ، وقد يوفق بعض الأبناء في الدراسة ويحقق

نجاحا ، بينما يتسرب البعض من المدرسة ، ويلتحق بحرفة ، والاسرة تقف منه موقف اللامبالاة ، وهناك من يشكو قلة الدخل ، ثم يسرع لتلبية رغبة الجماعة بالسفر الي القاهرة لحضور مولد الحسين ، فالبعض ليس له هدف يخطط له ، ويترك سفينة الحياة تحركها الأيام ، وقد تأتي الأيام بما تشتهي السفن ، واحيانا لا تأتي .

وبعض من يعيشون حياة متدنية، يعانون فيها من الحرمان، ليسوا متبلدين، فهم يعون ان مستوي المعيشة في الكفر دون مستوي المعيشة في مناطق اخري، وهم يعون سوء السكن ونقص المرافق. وهناك من يتألم لعجزه عن العمل بانتظام، وعمل زوجنه بدلا منه اثناء رقدته في البيت، البعض مريض بالتهاب الحلق أو بأمراض العيون أو بأمراض الجهاز التنفسي، البعض يخشى الذهاب إلى المستشفى خشية البقاء لإجراء عملية جراحية حتى لا ينفق كل ما معه ثم يتسول بعض الخروج من المستشفى، وبعضهم تشرد بعد وفاة الأب وزواج الأم. وهناك الصغير الذي اغراه تاجر المخدرات ليسوّق بدلا منه، وهم يشكون اميتهم أو البطالة، وهذه المظاهر التي تبين مستوي المعيشة المنخفض تبدو في صورة واضحة عند كبار السن أو الصغار الذين يترددون على المقهى.

وهم يدركون اختلاف طرق وتباين آرائهم في كيفية المعيشة ، واحيانا ما يختلفون في أيها أكثر جدوي ، وقد ينفعلون ويتماسكون

بالأيدي ولكن لا يفرض احدهم رايا، ولا يبرهن علي أي الآراء اكثر أهمية ، وينعكس تعدد الأهداف علي الواقع العلمي وعلي حياة هؤلاء الناس ، فمنهم من ارتقي بأولاده وانصرف الي تعليمهم وثابر في عمله وكوّن مالا يحمي اسرته من السؤال ويقيه من العوز عند الشيخوخة أو العجز ، وهناك من تردي واهمل أولاده الذين يتجاوز عددهم أصابع اليدين ، وهناك غير المستقر في عمله ، وهناك من يرتبط بالعمل متخذا علاقته برب العمل معيارا لاستمراره في العمل أو لانقطاعه عنه ، ويري ان العامل حر نفسه يعتمد في حياته علي " الخالق الرازق " ويتعين علي صاحب العمل ان يبحث عنه.

فهم مختلفون في طريقة حياتهم، كما يدركون مدي التباين والاختلاف بينهم، وكل منهم يشعر بالفرق بينه وبين الاخر ويرجع هذا التباين الي جهودهم العشوائية في سبيل التحسين وغياب الوحدة الفكرية وافتقاد المهارة في العمل.

إن أهم الأهداف التي تبدو واضحة وتسعي الأغلبية الي تحقيقها هي تعليم الأبناء من اجل تغيير أوضاعهم المهنية والاجتماعية، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف امتنع بعض مدمني المخدرات عن تعاطيها من اجل تدبير نفقات تعليم واطعام الأولاد، هناك من يسعي لجمع المال، ولكن جهود هؤلاء محدودة امام مستلزمات ومطالب الاسرة وهناك هدف ثالث يسعي اليه الشبان وهو الهجرة، والهجرة الي البلدان

الأخرى امل يرجوه الأكثرية منهم، وهناك من يتطلع الي التحول من عامل اجير الي صاحب عمل.

أنواع العمال رواد المقهى:

والعمال من رواد المقهى نوعان، النوع الأول يعلم أهمية تحسين مستوي معيشته على المدي البعيد، والنوع الاخر يسعي الي إشباع مطالبه على المدي القريب، ولذا كان بين رواد المقهى من يدرك أهمية التأمينات الاجتماعية ويتمسك بحقوقه التي نظمها القانون، ويواظب على الاشتراك في التأمينات الاجتماعية، ولكن هناك فريقا اخر يرضخ لاستغلال صاحب العمل ويرضي بالعمل لسد الحاجة مضحيا بكل حقوقه في التأمينات الاجتماعية راضخا لصاحب العمل وهو يعلم كل العلم انه لو مات فلا تعويض لأولاده من بعده.

وثمة مثال علي تأكيد المطالب العاجلة والتضحية بالأهداف بعيدة المدي ، توضحه تصرفات البعض إزاء الخدمات العسكرية ، فالخدمة العسكرية هدف قومي عند الشبان ، ولكن الانتظام في سلك الخدمة أمر شاق لبعضهم ، فهم يهربون من الخدمة العسكرية من حين لآخر ، وهم يهربون للوفاء بالالتزامات الاسرية ولتوفير نفقات معاشهم ، فهم يضحون بالالتزامات القومية ان تعارضت مع الالتزامات الاسرية. ويرجع هذا التصرف الي الزواج المبكر والانجاب السريع ، وعدم وجود دخل ثابت يكفل للأسرة حياة هادئة اثناء فترة التجنيد ، ولذا تظهر

النتائج المترتبة علي الهروب من التجنيد فتزداد الأمور تعقيدا وتطول فترة التجنيد .

وبعض الرواد في سبيل الحصول على بضعة قروش تحسن من معاشهم يوما ما، قد يبيعون ما خصص لهم في بطاقة التموين من مواد أساسية أو يلجأ الي شراء شهادات خبرة سعيا وراء عمل في الخارج– ولتلبية حاجات الاسرة – والتي يعجز عن سداد ثمنها فورا – يتعامل بعض الفقراء مع التجار الذين يبيعون بالأجل الطويل، ويدفعون اسعارا عالية أكثر بكثير مما لو دفعوا الثمن نقدا.

وهم في تعاملهم مع المؤسسات التي تقدم الخدمات يدركون ان ما يقدم لهم من خدمات اقل مما ينبغي، فالخدمات التعليمية في المدرسة ناقصة، وهم يشكون من جهل الأبناء بالقراءة والكتابة رغم التحاقهم بالمدرسة لسنوات طويلة وتسرب بعض التلاميذ هروبا من قسوة المدرس، وهم يلجأون الي المستشفيات لعدم القدرة علي دفع تكاليف علاج الطبيب الخاص وثمن الدواء. وقد تدفع المعاملة بالمستشفى المرضي الي الهرب تعلقا بالحياة أو خوفا من الموت، ورغم هذه المظاهر السلبية في الخدمات الصحية فإن لجوء المرضي الي الطبيب أو المستشفى بدلا من اللجوء الي الخرافات والتطلع الي المدرسة لتعليم الأبناء، كلها مظاهر للرغبة في التحسين بيد ان تعثر الأداء يساعد على بطء التحسين.

ويعيش رواد المقهى في ظروف صعبة ، تمتص قدرات البعض علي التفكير وتعصر جهود البعض الآخر، فهناك من يبحث عن سكن يأويه هو وأولاده بعدما تهدم المنزل القديم ، وتبعثرت اسرته عند الاهل والاقارب أو يبحث عن مسكن لابنته العروس ، أو يقضي جزءا من يومه بحثا عن عمل لابنه حديث التخرج من المدرسة أو ينشغل فكره بما تحدثه الفئران من اضرار ومتاعب له ولأولاده ، أو ينتظر فترة طويلة امام المخبز ، أو يشكو من عدم وجود شبكة الصرف الصحي ، أو عدم قدرته علي الوفاء بالتزاماته الاسرية لكثرة من يعولهم ، أو يعاني من تعدد زوجاته وكثرة أولاده وخلافاته المستمرة معهم أو يجري وراء معرفه مصير ابنه الغائب ، فالأكثرية تلهث وراء مطالب الحياة اليومية ولا تستطيع ان تتوقف لتفكر حتي في نفسها .

وهم يدركون تمام الادراك حالهم، ولقد صور أحدهم الوضع الذي يعايشونه " اننا ولدنا ومعنا لشقاء، لا معاش، ولا تامين، نعمل ويكسب غيرنا الذي يمتص دمنا، فلا خجل من التحدث عن حالهم، فحالهم ليس عورة يخفونها، ولا حرج من التحدث عن أوضاعهم، لا من اجل التماس الاحسان بقدر ما هو نبرة احتجاج عما يحيط بهم، أو للتنفيس عن آلامهم، وقد وصفوا حالهم في صور عديدة " أعيش داخل عشة ولن اكل ان لم اتسول "،"يفترش اولادي الأرض "، اخشي ان يقرض الفئران أرجل اولادي.. فالفئران مشكلة بلدا ".. "طلبات الأولاد غالية، حتى أسعار اكل الحيوانات مرتفعة ".. نحن نضحك كثيرا والا انفجرنا

"، فهم يعرضون مشكلاتهم بلا تكلف، الكل يحكي همومه للأخر، والكل يعلم مشكلات الاخرين ولا يساهم في حلها إلا بالكلمات، وهذه المشكلات تؤرقهم وهي سبب همومهم وقد يلجا البعض الي المخدرات لينسي الهموم ويغسل الزعل، ويهرب من الواقع الي عالم الخيال، مبررا تصرفه بانها ساعة أو بضع ساعة يقضيها الانسان منتشيا ناسيا واقعه الحتمي الذي سيعود اليه.

ورغم هذه الظروف التي تحيط ببعضهم فهناك من يتطلع الي التحسين ، وقد يكون تحسين المستوي شعارا عند البعض الذي فقد القدرة علي تكيف مع التغيرات التي حدثت في الكفر ، وبالتالي اصبح عاطلا بعدما اندثرت حرفته أو قل الطلب عليها ، وعجز ان يمارس عملا اخر واصبح همّه الشكوى من الحاضر فهو يمجد الماضي لأنه كان عاملا مطلوبا فصار عاطلا ، واصبح الحصول علي ثمن الطعام وأجر المسكن مشكلة عنده ، وهناك مثال اخر للتحسين ولكنه مثال سيئ ، هو مثال ذلك الشخص الذي احترف النصب ، وكان يعيش يومه مطاردا من رجال الشرطة ، وعندما أراد التغيير تحول الي بائع صحف ولكنه هجر العمل الشريف واستغل زوجته أسوأ استغلال ...يقابل هذه الصور السلبية والقاتمة الحوذي الذي علم أولاده والحلاق الذي جعل ابنه الأكبر مهندسا والابن الاخر عاملا فنيا وابن الخباز عامل البناء ، والمهندس ابن الفكهاني المتجول ، والبائع المتجول الذي يقتطع من رزقه لإعطاء ابنه دروس تقوية ، وسائق السيارة الذي علم ابنه حتي

حصل علي مؤهل وبلغ وظيفة قيادية ، وحامل اقفاص الفاكهة الذي علم ابنه حتي عمل بالصحافة ، فالرغبة في التحسين موجود عند البعض حققوها في الاهتمام بتعليم الأبناء خشية ان يجرفهم تيار الفقر ، واملا في نشلهم مما يعاني منه الاباء ، أو دفع الأبناء الي تعلم صنعة جديدة رائجة في السوق تدر علي الابن دخلا ، كما تجسد الرغبة في التحسين في اندفاع الكبار في السن الي الحصول علي معاش " السادات " ليكون حائلا دون مد اليد أو ليساعدهم في معاشهم .

فاغلب رواد المقهى من الكبار يسعون الى تعليم أولادهم أو الحصول على معاش أو الاشتراك في التأمينات الاجتماعية، ويسعى الشباب الى مستقبل أفضل من الحاضر، أما الكبار فيهدفون الى المحافظة على الوضع بدلا من التردي ويلهث البعض وراء ثمن قوت يومه متنقلا من مكان الى مكان، وقد يبدا عمله في الخامسة صباحا ويظل يعمل حتى الثامنة مساء ،ويتناول وجبات طعامه خارج البيت معرضا نفسه لأكل الطعام الفاسد واستغلال أصحاب محلات المأكولات ويعيش بعضهم مطاردا من رجال الشرطة الذين يحاولون فرض النظام، لعدم تواجد مكان يتعامل به مع العملاء.

وفى الوقت نفسه هناك مجموعة تقبل ما هي عليه، ولا يسعى أفرادها الى احداث تغييرات منظمة هادفة في حياتهم، يعيش البعض مستسلما راضيا قانعا " اهو الكلب بياكل"، ويسخر البعض من حاله

بقوله" هناك أناس تعيش تحت الصفر ونحن لا نجد الصفر لنعيش تحته"، وهناك من ينفق ما يكسبه لكأس خمر مغشوش أو يفقده في لعب القمار، هذه النماذج البشرية تعكس حالة التردى التي يعيشها البعض، والتي تجاورها نماذج الآباء الذين يتطلعون الى التغيير في شخصيات أولادهم أو يجاهدون للاشتراك في التأمينات الاجتماعية ضمانا للمستقبل أو للحماية في حالة العجز، وهناك من يسعى الى الهجرة سعيا وراء تغيير الوضع الاقتصادي والاجتماعي.

وهنا يثار سؤال هل الهجرة التي يسعى اليها البعض تحسن مستوى معيشة هؤلاء؟ وإذا كانت الإجابة بالإيجاب فتحسين مستوى من؟ الفرد أم المجتمع؟ وإذا ما سلمنا بسراب العمل في البلاد العربية وتمشيا مع رغبة الشباب للعمل في الخارج لتحقيق مدخرات تنفعهم، فالهجرة لها سلبيات على المستوى الاجتماعي للشخص في الكفر، فهناك مظاهر كثيرة للتفكك الاسرى نظرا لغياب الاب أو الزوج، بل هناك مظاهر للانحلال الخلقي سببها تواجد الزوج في الخارج لجمع المال، وهناك حالات للسمان المهاجر الذي عاد ليطلق زوجته أم أولاده ثم تزوج ثم رحل ثانية... أما على المستوى الاقتصادي فالكفر يعاني من أسعار المضاربة في الأرض التي سببتها رغبة العمال العائدين من الهجرة في تأكيد ذاتهم وظهور نمط الاستهلاك الترفى في الكفر بجوار مظاهر الحرمان.

وقد يقع البعض فريسة استغلال الاخرين، وتصهره علاقاته الاسرية وقد تدفع قلة من الآباء والأمهات أولاده الى التسول أو يدفع الزوج زوجته الى العمل في خدمة الاسر وبيع الأشياء التافهة ليقبض هو، وهذه النماذج من السلوك الانحرافى تقابلها أشكال أخرى من التحسين، فهناك مجموعتان من الناس لن يلتقيا بين رواد المقهى، مجموعة تبذل الجهد للوصول بالسفينة الى بر الأمان، وتغير نمط حياتها وحياة أولادها الى الاحسن، وهناك مجموعة استسلمت لواقعها ولاستغلال الغير لها.

معوقات التغيير:

ولكن ما الذي يمنع من التغير ويعوق الجهود التي تبذل لتغيير الواقع؟ ان سكان الكفر ليسوا اغبياء، فهم يعون كل الوعي الفارق بين سارق رغيف الخبز والمدرس المقصر في عمله، ويدركون ان العقاب الجنائي ينزل على الأول، بينما الاخر طليق، وهم يدركون ان صاحب العمل في القطاع الخاص يريد العامل في كمال صحته، وهو يرغب في استغلاله الي أقصى حد، ولقد شبهوا أصحاب العمل بأنهم مثل " الثعابين المتوحشة في الجبال " وهم يعرفون بالتجربة ان موت العائل يعني تشرد الاسرة وضياع مستقبل الأولاد، فاذا كانوا على هذا المستوي من الفهم فما الذي يمنع من التحسين؟ ثمة علامتان في

سلوك هؤلاء الناس تدلان على ان وراء الهدوء الظاهر ايمانا بتغيير حتمي مرجعه الي قوي غيبية.

العلامة الاولي هي التفكير الخرافي وهو من اهم الأسباب التي تدفع الي عدم التجديد والتغيير، ومن نماذج التفكير السائد ذلك الرجل الذي يحكي قصة ابنة الوليد الذي خرج الي الدنيا مبتسما ماسكا بيديه حبوب منع الحمل ... والتي لم تحل دون تكوينه في رحم امه، ولم يدرك هذا الاب أن هذه الحبوب تذوب في سوائل الجسم بعد ثوان وان ثمة خطأً حدث من الام، والعلامة الثانية هي التفكير التواكلي، فهم يرون ان كل شيء يخضع للمشيئة الإلهية، ويؤكد ذلك اقوالهم وآراؤهم التي تبرر سلوكهم سواء في مواقف الهروب من التجنيد ... أو خطأ الطبيب.. أو عدم السعي للبحث عن عمل.. وهم يرددون تعليقات كثيرة تؤكد توحدهم بالقيم التي تؤكد التواكلية مثل " البركة من الله،" خليها علي الله "،" ربنا يعطينا "، اترك الملك للمالك " رزقي علي الله "، "صابر علي حكم ربنا " سلمها لله تكسب "،" الغني غني النفس "،" إرادة الله فوق كل شيء "،" في أي مكان نرزق "،" رضا من الله "،" المساعد ربنا "،" من يسجد لله كسبان ومن يسجد لغير الله خسران "،" نحن نأكل ما يريده ربنا ".

افراد المقهى أنواع تصدر اراء متباينة متعددة عن الحياة ومشكلاتها يعكس ذلك سلوكهم، فنجد منهم الثائر والمستسلم الذي لا يريد شيئا من الدنيا، ونجد بينهم المتدين والمتهالك على المكيفات، ونلاحظ

بينهم السلبي والنشط، وتشتت اراء هؤلاء الرواد في الحكم علي الناس. بعضهم يري ان الطيب " هو من يصلي وقت بوقته " والبعض لا يبالي ولا يهتم حوله ولا بالعالم وما يحدث فيه، فغاية املة اشباع شهواته، بعض الباعة منهم شرفاء والبعض الاخر يغشون سلعهم نجد بينهم الشائر المهتم بالأحداث السياسة المتابع لأحداث بولندا وإيران والعراق، كما نجد من يلهث وراء لذاته لاعنا من يحرم نفسه، ويلقط رزقه يوما بيوم، ونجد من يرغب الهجرة فرارا من الكفر، ومن يحمد الله على حاله راضيا كل الرضا عما حوله.

تختلف اراء الشيوخ عن اراء الشبان، لا تجمع الجميع وحدة هدف ولا وحد راي، حتى موعد حضورهم لا يتفقون عليه، اذ يقبل الشيوخ والكبار على المقهى طوال النهار، اما الشبان فيترددون عليه في الصباح والمساء وتكون كل جماعة عمرية أعضاءها، وهناك التابعون والمنقادون الذين يلبي الواحد منهم رغبات المترددين من السوق مقابل مشروب من المقهى أو سيجارة، وهناك الزعامة الشكلية التي لا تتميز إلا بالصوت الجهوري وترديد الاشاعات، وهناك الصامت الذي ينصت لناقل الأخبار.

ويرجع الخلاف في الآراء والاهداف الي عوامل عديدة بعضها داخلي، وبعضها كامن في البيئة التي حولهم، واهم العوامل الداخلية طريقة التفكير الاتكالية التي تميز هؤلاء الناس، اما العوامل الخارجية

فترجع الي امية البعض والي استغراق الشباب في العمل المضنى سعيا وراء المال بما لا يدع مجالا للمساهمة في التفكير في حل المشكلات، ومحاولة بعض الشبان تقليد من يكثر في يدهم المال من زملائهم العائدين من الخارج.

وهناك من يأتي الي المقهى لقضاء وقت الفراغ والتسلية ، ومن يحضر ليدير أمور العمل ، والهدفان متباعدان ومتنافران مثلما تتباعد اعمار المجموعات التي تضمنها المقهى ، مجموعة الكبار ضعفت عضلات تفكيرهم واستسلموا للواقع ، اما اغلب الشبان فيرغبون في التحسين والتغيير ، ولكن كيف يتم التغيير والتحسين فتلك هي المعضلة، فالقدرة علي التحسين فردية وعشوائية، وإذا كان الكبار لديهم القدرة علي تحمل الواقع الأليم الذي يعيشونه، واستسلموا لقوي عليا راضيين بالواقع املا في العالم الاخر الأكثر راحة، فالشباب يرفض الواقع ولكنه يفتقد القدرة الواعية للتحسين ، وان لم يفقدوا القدرة علي تحمل الحرمان والمعاناة ، وهم يتميزون بقدرة احتمال مادية تبدو في صورة الصبر على سوء المسكن ونقص المرافق والخدمات، كما يتميزون بقدرة احتمال معنوية تبدو في صورة الألم النفسي والذي يدفع بعضهم الي المزاح هربا من الواقع أو ادمان المخدرات ، وهذه القدرة علي التحمل سببها ايمان عظيم بالخالق الذي لا يشكون لغيره، وهذا الايمان بالخالق جعل منهم أشخاصا متواكلين ، لا يجهدون اذهانهم لوضع بدائل لأحوالهم ولذا تفتقد مجموعة منهم القدرة علي التصرف،

كما يفتقدون القدرة علي الابتكار، مثلما حدثت عندما فرضت الشرطة قواعد الانضباط علي الباعة فشكوا لعدم وجود بدائل للعمل .

والأكثرية لا تميز بين الأهداف ، وتفتقد القدرة علي حساب كيفية تحسين الكفر ، اذ انهم يلقون تبعة التحسين الي الحكومة ، بل والبعض منهم لا يفرق بين الأهداف ووسائل بلوغها ، بل قد تبرر الغاية ووسيلة بلوغها ، وقد يسلك الشخص سلوكا لا أخلاقيا ولا قانونيا للحصول علي المال ، مثل الرجل الذي دفع زوجته الي الهاوية ، أو ذلك الرجل الذي اعطي بيانات غير دقيقة للحصول علي معاش السادات ، ولكن هذه الصورة السلبية يقابلها نماذج لجهود إيجابية من رواد المقهى ، فهناك من ساعد أولاده علي كسر حاجز الفقر الذي طوقهم في الصغر، وهناك من ثابر وجاهد حتي اصبح من رجال المال في المدينة ، ولكن هذا كله هو الاستثناء ، ويعبر عن الجهود الفردية لحل المشكلات الاجتماعية التي تؤرقهم .

وبعض رواد المقهى مستسلم للواقع، سلبي إزاء ما يحدث ولا يميز بين اهداف قصيرة المدي واهداف بعيدة المدي، بل يفتقد القدرة على كيفية التحسين، وهل التحسين هو الحصول على المال فقط من اجل شراء ملابس جديدة أو تناول وجبة لحم أو تعليم الأولاد أو الهجرة، وهم تواكليون " فالرب لن ينساهم "، وهو الرزاق، فهو الذي خلقهم وهو الذي يتكفل بهم وترجع المشكلات التي تصادفهم وهي كثيرة الي

اميتهم وجهلهم بالقراءة والكتابة، أو عدم احترام النظام والقانون أو الجهل به، ولا يملكون إلا الرثاء لحالهم وترديد أمثال الصبر والشكوى من سوء معاملة الجهاز الإداري والذي يحاول فرض النظام.

وظائف المقهى:

ولا يوجد توافق بين المقهى وبين ما يحدث في البيئة من تغيرات ، فالمقهى مكان للتسلية أو التجمع بقصد الحصول علي عمل ، يتفاعل رواده مع البيئة تفاعلا عشوائيا ، فهم مجموعة من الأشخاص الذين جذبهم موقع المقهى ، ورخص أسعاره ، والشيوخ والكبار في السن راضون قانعون بأحوالهم لا يأبهون بما يحدث من تغيرات في الكفر أو المدينة ، اما اكثر الشبان فقد تمردوا علي واقعهم ، ورفضوا وراثة الأوضاع الاسرية وجذبتهم الاعمال الجديدة وكان قطاع البناء والتشييد اكثر المجالات جذبا لهم ، كما عمل البعض في الصناعة سواء في ورش القطاع الخاص أو المصنع الكبير بالكفر .

اشتهر المقهى قديما بانه مكان لتجمع تجار المخدرات أو بيع حقن الافيون ولكن تغير الحال بعد وفاة صاحبه، فلم يعد المقهى إلا مكانا لتجمع العمال والشيوخ المعتزلين للعمل يلعبون الدومينو، ويدخنون " الجوزة " يعمل مستأجر المقهى وسيطا بين الراغبين في العمل لأول مرة في قطاع المعمار والتشييد ورؤساء العمال الوسطاء الذين لا يعرفون الناس بالاسم وهو لا يتقاضى في سبيل لك اجرا، رغم

انه لا يهدف إلا تحقيق الكسب، فهو لا يغير من اثاث المقهى أو أدوات العمل كما تخلو المقهى من المذياع والتلفاز الذي وضع في مقاهي اخري.

يجلس العاطلون والشيوخ ساعات كثيرة يتحدثون أو يلعبون الدومينو أو يدخنون " الجوزة " ينقل الحديث من موضوع لموضوع بلا رابط أو مقدمات ، واحيانا ما يغتاب بعضهم بعضا ويتقوّلون علي غيرهم ، النميمة سمة الشيوخ والكسالى منهم ، ويستهجن الشباب النميمة فهم يكرهون اغتياب الناس مثلما يخشون ويرتابون في رجال السلطة ، وقد يجامل الرواد بعضهم بعضا ، ولا تتعدي هذه المجاملة الكلمات في المواقف المواجهة المباشرة ، وهم يحاولون الغش في العابهم وقلما يلعبون بقصد التسلية ، فالغالب علي اللعب انه مقامرة علي المشروبات ، وهذه الجلسات وقتية قد يمتد فيها الحديث الي توضيح كيفية استخراج أوراق رسمية أو التقاط عمل، كما يعرف الرواد اثناء الجلوس بالمقهى ما يحدث من تغيرات حولهم، وما يصدر من قوانين أو قرارات تؤثر عليهم.

والحذر يشوب العلاقات مع الغرباء، وهم يخافون الغريب ويخشونه ويهاب اكثرهم التعليق على ما يسمعونه من انباء السياسة، ولكن هواة السياسة لا يتوقفون عن التعليق رغم غمزات الاخرين لهم. وهم انفعاليون يرتفع صوتهم دائما اثناء اللعب أو النقاش، وقد يختلفون

علي قواعد اللعب ومبادئ الحساب من جمع وطرح اثناء لعب " الدومينو " وقد يتشاجرون سويا، أو يتماسكون بالأيدي في سبيل الحصول علي مقعد، ولكن سرعان ما يهدأون، وقد يهب البعض من مقعده ويتشابك بالأيدي مع المتسكعين من الغرباء أو الذين يعتدون علي جيرانهم ومعارفهم ، واحيانا ما يتبادلون الشتائم والسباب ، ولم يعد التلفظ بالألفاظ الجنسية أو ان يلعن الرجل أبا الاخر وامه عورة ، أو كبيرة من الكبائر ، فسب الإباء والامهات تصرف عادي ، كما ان الشكوى من الشجار مع الأبناء وضرب بعض الأبناء لأمهاتهم وابائهم ، أو طرد الأبناء من البيت أمر عادي مألوف.

أما علاقتهم بالسلطة فمشوبة بالريبة والحذر والخوف، الشرطة تريد فرض النظام واحترام القانون، البعض يرضخ لذلك أو يهاب الشرطة، والبعض لا يستطيع أن يتقبل المقصود بالنظام، ولذا ينفر من التعامل معهم، والبعض يفتقد الثقة في السلطة ولا يقبل التعامل معها في جميع اشكالها ولو كان التعامل مع هيئة التأمينات الاجتماعية، اذ ان السلطة لا تتعالي عليهم.

كان رواد المقهى من الباعة يتساءلون " أين نذهب؟، وكيف نعيش؟"، هذا العمل موجه ضد الغلبان، اننا مطاردون، وهذه التعليقات تعكس عدم فهم وظيفة الشرطة والمقصود بالانضباط، وذلك عندما فرضت قواعد الانضباط.

ملامح التغير في الَكْفر:

التغير في المنطقة واضح وملموس، التغير المادي ظاهر وسريع كما يتزايد اعداد الصغار في المدارس، ويتكاثر عدد الراغبين في دفع أقساط التأمينات الاجتماعية، اما القانون كأسلوب فعّال للضبط الاجتماعي فلا يحقق وظيفته على الوجه الاكمل، هناك مظاهر كثيرة للاعتداء على القانون، ابتداء من ارتكاب الباعة مخلفات البيع بأكثر من التسعير مرورا بارتكاب جنح الاعتداء بالضرب والمشاجرة، وهي قضايا يشترك فيها الرجال والنساء معا، أو الاشتراك في تهريب السلع مقابل أجر أو البيع في أماكن يحرم فيها البيع، وهم يرتكبون هذه المخالفات عمدا ولكنهم يخشون القبض عليهم، وإذا كانوا يعتدون على القانون، فهناك من يستغل جهلهم وسوء تصرفاتهم مثل سماسرة العمل أو " شيخ الحارة " أو الموظف الذي يتقاضى مبلغا من المال لاستخراج أوراق رسمية لهم.

وهم يشكون نقص المرافق والخدمات، ويتندرون على قادتهم الذين انعزلوا عنهم الانتخابات" وكأنهم يعملون لحسابهم " ويشكون من نقص الجمعيات التعاونية الاستهلاكية رغم توافرها في مناطق اخري، وهم يتزاحمون امام أبواب هذه الجمعيات إذا توافرت بها السلع، هربا من استغلال التجار لهم.

وكان الاقبال علي الاشتراك في التأمينات الاجتماعية صورة للتغيرات الاجتماعية في الكفر، كما اقبل العاجزون والمسنون علي الاستفادة من معاش " السادات " بيد ان البعض لحاجته الي المال سعي الي الحصول علي معاش السادات ليسنده علي مواجهة تكاليف الحياة مستخدما في ذلك أساليب تقع تحت طائلة القانون ، والحرفيون والذين يعملون لحسابهم يسعون الي الاشتراك في التأمينات الاجتماعية ، بيد ان البعض يعجز عن دفع الاشتراك الشهري للتأمينات ليحصل علي المعاش بعد الستين ، ويرجع هذا العجز الي عدم القدرة علي تدبير قسط التأمينات الاجتماعية والوفاء بالالتزامات الاسرية واشباع الملذات.

ويحاول الآباء أن يسايروا ما يحدث من تغير اجتماعي في المدينة ، وصاروا يتطلعون الي أولادهم ، بل يقتطع بعض الإباء من دخل الاسر ليدفعوا أجور دروس تقوية لأولادهم ، اذ ان اغلب المدارس بالكفر تفتقد المدرس الكفء الخبير ، ولان المسئولين يضعون في مدارس الكفر الاحدث تخرجا أو الأقل تجربة أو الاقل كفاءة ، ولذا يشكو الإباء من عدم استفادة أولادهم من المدرسة ، ومثل المدرس قليل الخبرة ، الطبيب قليل الخبرة الذي يخدم بالكفر، وكما يشكون نقص كفاءة المدرس والطبيب يشكون غطرسة بعض الموظفين وتعطيلهم لمطالبهم ، وهم في شكواهم من الإدارة البيروقراطية لا يعدمون رؤية أسبابها وهي " افتقاد النظام " ، فغياب النظام سبب كل ما يعانونه من

متاعب ، وهم يعون بقوة السلطة البيروقراطية وانه لا فائدة من الشكوى منها .

وقد قدمت الحكومة الدعم لكثير من السلع لتيسير حصول المحتاج وأصحاب الدخول البسيطة لها، بيد ان هؤلاء الفقراء الاميين يعون انهم مستغلون وان الدعم لا يصل إليهم، فالحكومة تدفع الدعم اونطة " بمعني انه يذهب الي غيرهم.

وقد دفع انتشار جهاز التلفاز وآلات الكاسيت أو الأدوات الكهربائية، بين بعض الاسر التي عمل أولادها بالخارج، اسرا اخري الي شراء هذه الأجهزة بالأجل، مما ساعد على انصراف البعض الي بيته في المساء لمشاهدة تمثيلية معينة أو فيلم سنيمائي أو برنامج ديني، وهم يرددون ما شاهدوه على الشاشة الصغيرة أو سمعوه من المذياع، ويعلقون عليه بيد ان تقبل الأجهزة الجديدة كان أسرع من تقبل الأفكار الجديدة وخاصة بين الشيوخ.

وإذا ما تقضينا طبيعة الاتصال بين المقهى والبيئة التي حوله، وإذا ما فهمنا الاتصال بانه نقل الأفكار والمعلومات والاتجاهات والعواطف من شخص أو جماعة لآخر من خلال الرمز.

فان الاتصال بين رواد المقهى كان سببا في معرفتهم بما حولهم ومعرفة كل ما يدور في البيئة، فبالاتصال الشخصي يحصلون على العمل، وبالاتصال الشخصي سمعوا عن قوانين التأمينات وفوائدها،

ومعاش السادات، ومن خلال الحوار عرفوا فكرة تنظيم الاسرة، ونقلوا انباء الانضباط.

وتعد الاشاعات وسيلة هامة من وسائل الاتصال بالمقهى، إذا ما فهمنا الاشاعة بانها خبر وحكاية مشوشة وغير حقيقية وغامضة، فهم يحكون اشاعات عن الانضباط واشاعات أكثر عن تنظيم الاسرة وعما يحدث في السوق، وقد تكون هذه الاشاعات مختلفة من أساسها، كما يحكون اخبارا عن ثروات بعضهم وعلاقاتهم بزوجاتهم واولادهم، فلا اسرار اطلاقا على المائدة.

والاتصال الشخصي ليس وسيلة الاتصال الوحيدة بين رواد المقهى اذ يسمع البعض المذياع، ويسهر بجواره ليلا أو يشاهد الشاشة الصغيرة، أو يقرا الجريدة، وأحيانا ما تقرا الجريدة بصوت مرتفع، ويعلق الجالسون على ما يسمعون سواء عن اخبار الجرائم أو احداث إيران أو بولندا واخبار المستوطنات.

وأحيانا ما يصل الحديث الي نقد ما يدور بالمدرسة أو المستشفى أو سوء توزيع المواد الاستهلاكية أو ازمة الإسكان، أو افتقاد النظام أو المقارنة بين الماضي والحاضر، أو انتقاد تصرفات بعضهم، ولا يتعدى الحديث عن وصف احوالهم دون تفكير في تقديم حلول بديلة، والامية وعدم الوعي هما سببا قصور هؤلاء عن تفسير ما يحدث لهم وما يحدث حولهم.

والكبار منعزلون عما حولهم، بسبب العجز المادي، وقلما يتخطون حدود الكفر، ولكن الشباب لا تستطيع ان تميزهم عن غيرهم في غير ساعات العمل، دائما خارج الكفر يعملون هناك في تشييد المباني الجديدة أو الورش والمصالح الموجودة خارج الكفر، يجمعون المال وينفقون اكثره هناك في المقاهي أو المحلات التجارية.

وافراد المقاهي من الكبار اقل وعيا لما يحدث في المدينة من تغيرات، اما الشباب فقد سايروا اتجاهات التطور، بيد ان التغير المادي أسرع، اما التغير في أنماط السلوك وانماط التفكير فأبطأ، وقد يكون السعي وراء المال وامتصاص العمل لهم وما يستلزم ذلك من جهد وطاقة سببا لتوقف عن التفكير في حالاتهم.

تبدو مظاهر التحسين في التردد على الأطباء، والايمان بالطب كوسيلة للشفاء، رغم مجاورتهم لمقام صاحب الضريح الكبير، والتطلع الي تعاليم الأبناء والحرص على الاشتراك في التأمينات الاجتماعية والندم على الوقت الذي فات دون اشتراك في التأمينات، ولكن المستفيدين من التحسين هما الشبان والصغار، بيد ان استفادة هؤلاء من التحسين ليست كاملة اذ قد يشوه بعض القائمين علي التحسين الصورة، ويعوقون خطوات التحسين، ويدفعون الناس الي الإحباط والشعور بانهم دون غيرهم استفادة من أساليب التحسين.

وقد تصدر عن بعض رواد المقهى مظاهر السلوك السلبي، ومن اهم هذه المظاهر تعاطي المخدرات والمكيفات، والتواكلية المطلقة وتمني فرض التغيير عليهم، من اعلي والعلاقات الاسرية المفككة، والامية التي تدفع البعض الي الوقوع في شباك المستغلين، واللجوء الي الغش كأسلوب لتحقيق الهدف، ورغم هذه المظاهر السلبية، فهناك مظاهر عديد للسلوك الإيجابي، مثل اندفاع الشبان الي سوق العمل الجديد، والايمان بأهمية الاشتراك في التأمينات الاجتماعية ، والمشاركة الوجدانية في بعض المواقف التي لا تتطلب مالا، وباعتبار هذه المشاركة واجبا ينبغي ان يؤدي، ونزول المرأة المعيلة الي العمل تحملا لمسؤولياتها بعد فقد الزوج أو تكاسله، والحرص على تعليم الابناء، ووعي البعض بالأحداث السياسية التي تحدث على الساحة المحلية أو العالمية.